المحاضرة الثالثة: سبينوزا (1632_ 1677)

Spinoza Baruch

1_ حياته:

ولد في أمستردام عاصمة هولندا عام 1632م وتوفي في لاهاي 1677م كان ابنا لأسرة يهودية، رحل أجدادها عن ديارهم في البرتغال لكي يجدوا مكانا خصبا للعبادة على طريقتهم الخاصة، لقد تسبب خروج المسلمين في الأندلس المزدهرة في أن تجد محاكم التفتيش النصرانية فرصة لنشر حكما دمويا، يسوده نوع من التعصب الديني، والانتقام من المسلمين هذا جعل الحياة لمن ليس نصرانيا غير مستقرة، وكانت هولندا أثناء عصر الإصلاح الديني في حرب طاحنة ضد الحكم المستبد في اسبانيا، وأصبحت ملجأ لكل المضطهدين أنذاك وقد كانت أمستردام عاصمة وفضاء وموطنا لليهود المضطهدين، وكانت أسرة سبينوزا من بين هذه الطائفة. بدأ سبينوزا في تعلمه للتوراة والتلمود وشعر القدماء وعلم المحدثين وانكب على دراسة الآراء الفلسفية لمعاصريه، وأقبل على فهم الميتافيزيقا التي ندى بها موسى بن ميمون، ابن جبرول... وغيرهم من اليهود، درس الأخلاق في الميتافيزيقا التقليدية وتأثر بفلاسفتها مثل أفلاطون، أرسطو، أبيقور، جيوردانو برونو، ديكارت درس اللاتينية والعلم الجديد الذي قد أرسى دعائمه كل من جاليليو، كبلر، هارفي، بل حتى ديكارت، بالإضافة إلى الرياضيات والعلوم الطبيعية.

بعد أن أكمل سبينوزا تعليمه مات أبوه ترك ثروة كبيرة حاولت أخت له أن تستحوذ على هذه الثروة وأخذت به شكوى للسلطات اليهودية واتهم بالإلحاد، والخروج عن دين اليهود، حاول اليهود وأحبارهم استمالته لكي لا يذيع أفكاره على الناس ولكنه رفض حتى وصلوا إلى اغتياله، وعندما وجدا أمستردام بلد ليس مستقر رحل إلى لاهاي واعتكف فيها ليدون أفكاره وكان يقتات من حرفة لا ترقى إلى مستوى الحرف وهي صقل العدسات وبيعها، كان شعاره اشغل يديك ببضاعة الأرض، واشغل رأسك ببضاعة السماء. هكذا ظل سبينوزا وحيدا مع مؤلفاته وأفكاره غريبا وسط قومه ومعتزلا الحياة بأكملها وعلى الرغم من ذلك ذاعت شهرته ويقال إنه تقابل مع ليبنيتز في لاهاي، في عام 1673 عرض عليه أمير لاهاي كرسي الفلسفة في جامعة هيدلبرج رفض قبوله وقال" أعتقد لو تفرغت لتعليم الشباب فسوف أكف عن ممارسة الفلسفة " عرضت عليه الدنيا من قبل الملوك والرؤساء لكنه رفض وفضل العيش فقيرا، لأنه كان يؤمن بأن الرجل الحر هو سيد نفسه وليس خادما لأحد"

2_ مؤلفات سبينوزا:

_ رسالة في إصلاح العقل عام وهو مقدمة في المنهج والمعرفة، عبارة عن مدخل للمنهج الجديد سنة 1661

_ مبادئ الفلسفة الديكارتية مبرهنة على الطريقة الفلسفية 1663 هي عبارة عن محاضرات كان يلقيها سبينوزا على طلبة يتوافدون إليه ويعتبر تمهيدا لفلسفته التي تأثر فيها بديكارت

_ الأخلاق مؤيدة بالدليل الهندسي 1665 هو كتاب في الأخلاق لم يصدر مباشرة تم حجزه خوفا من السجن والتعذيب والحرق لتلك الأفكار الواردة فيه نفس أفكر جاليلوا، برونو، تناول فيه موضوعات عن الله، الألوهية، النفس، الانفعالات، العبودية، قوة العقل، الحرية الإنسانية...وغيرها

_ رسالة في اللاهوت والسياسة 1670 هذا الكتاب أيضا لم يصدر مباشرة لأن فيه أفكار مضللة للسلطات والتي تصدت له وحرمته فيه برهن على أن حرية التفلسف لا تمثل وتشكل خطرا على التقوى وسلطة الدولة وسلامتها والقضاء على الفلسفة هو قضاء وانحطاط للدولة

_ رسالة في السياسة 1677 فيه رسم سبينوزا الخطوط التي ينبغي أن يكون عليها المجتمع حتى لا يصبح ضحية الحكم الديكتاتوري،

_ رسالة قصيرة في الله والإنسان وسعادته 1852.

2_ نسق سبينوزا:

يعد سبينوزا من فلاسفة العصر الحديث القلائل الذين قاموا بأداء أعمالهم بدقة بالغة ونظام لا يحيد كذلك خاصة وأنه عاش حياة العزلة ومنبوذا من طرق بيئته لكن الامر جاء عكس ذلك استطاع أن يتحدى ذلك ويثبت نفسه بقوة.

وبسبب ظروفه الأسرية والاجتماعية من حوله، كرس سبينوزا حياته للفلسفة السبب في ذلك هو يشعر أنه بحاجة لخير أسمى يعيش من أجله، وسعادة قصوى يسعى إليها ذلك منحه الرضا النفسي والعقلي ذلك أيضا جعله يبتعد وينعزل عن المحيط الذي هو حوله.

سبينوزا انطلق من حيث انتهى ديكارت فاذا كان ديكارت يميز بين جوهرين أساسيين هما الجوهر العقلي والمادي وأعلن الانفصال بينهما، فإن سبينوزا يمتلك وراء ديكارت نزعة توفيقية توحيدية هذه النزعة جعلته يعترف بجوهر واحد فقط

فإذا كان ديكارت أعلن صفة التفكير أنها خاصة بالعقل، وصفة الامتداد خاصة بالجسم والمادة فإن سبينوزا يقر أن الصفتين أصلهما جوهر الواحد، وهذا المذهب الذي ذهب إليه سبينوزا قل به من قبل بارمنيدس

يسمى مذهب وحدة الوجود panthéisme قال به برونو، سبينوزا، ابن عربي، الحلاج...الخ وهذه الكلمة هي يونانية الأصل pan تعني الكل، وtheos تعني إله. ومحتوى مذهب وحدة الوجود هو أن الله هو العالم وجسمه النجوم والكواكب والنباتات عقله هو الروح التي تشكلها وتلونها وتحركها وكل عقل بشري هو جزء من عقل الله هذا المذهب يعرف بوحدة الوجود.

العالم من منظور سبينوزا لا متناه ليس له بدء في المكان، وهو خالد لا بداية له في الزمان ولا في المكان، العالم الذي نراه هو بمثابة جسم الله، والفكرة التي تتأمله وهي عقله الطاقة التي تحركه هي روحه كما أن كل جسم بشري هو جزء من جسم الله وكل فكرة بشرية هي جزء من عقل الله، والعالم الذي نعيش فيه لا نتحكم فيه وفق هوانا ورغباتنا وإنما يسري وفق مشيئة الله التي تشمل كل شيء كل شيء حسب هذا المذهب هو مقدس وأن الله والطبيعة في تطابق لا نهائي.

هنا يصل سبينوزا إلى وجود جوهر واحد لانهائي يتحكم في العالم له عقل وجسم. هو الله.

3_ نظرية المعرفة:

سبينوزا تأثر بفلاسفة العصر الحديث في القرن السابع عشر بالخصوص انتهاج طريقة البحث في عملية المعرفة وهي طريقة الاستنباط الرياضي والرياضيات، كان يمجدها كما مجدها ديكارت من قبل وأعطى لها أهمية في مذهبه العقلاني

يرى سبينوزا هو الآخر أن الرياضيات هي المفتاح الذي بها نستطيع فهم وحل أسرار الكون، وكذلك اكتشاف قوانينه لذاك اعتمد على علم الهندسة في بناء فلسفته.

الهندسة تبدأ بقضايا صحيحة وصادقة ولا تحتاج إلى برهنة مثل البديهيات والمسلمات والمصادرات فكذلك البحث عن الحقيقة يقتضي البدء بقضايا صادقة من أجل بناء نسق فكري أو صرح معرفي معين، يفيد الإنسانية جميعا وإذا كان ديكارت رائد الفكر الفلسفي الغربي الحديث قد وجد في الذات والنفس والانا نقطة انطلاقه وذلك أيضا امتداد لفلسفته كلها فإن سبينوزا وجد في الله تعالى نقطة البدء وانطلاقة نحو بناء صرح معرفي يريد تحقيقه.

لقد كان ديكارت يعتبر الوضوح والتمايز معيار لصحة وصدق الأفكار وبين أن الكوجيتو "أنا أفكر إذن أنا موجود" قضية صادقة لأنها تحقق معيار الوضوح والتمايز، إن سبينوزا رأى أن الفكرة الصادقة هي التي تكفل ذاتها بذاتها، فلا تفتقر إلى ما يضمن صدقها والا سنقع حتما في الشك المطلق. هذا الدور يجعل من المعرفة معرفة مستحيلة ويجب البحث على فكرة تكفل ذاتها بذاتها هكذا نقدم الطريقة الصحيحة في المعرفة والمعرفة كذلك تكون صادقة ويقينية أي حقيقتها تتجلى في ماهيتها الذاتية هذه الفكرة يطلق عليها سبينوزا الفكرة الوافية او الفكرة الصادقة أو المفهوم العام والصادق.

يقول سبينوزا:" إن الفكرة الصادقة هي معيار الصدق، فكما أن الضوء يكشف عن نفسه وعن الظلام في آن واحد كذلك الصدق هو معيار نفسه ومعيار الكذب في نفس الوقت. ومن حصل على معرفة صادقة عرف في الوقت نفسه أنه حصل على معرفة صادقة لا يمكن لأحد أن يشك فيها" وإذا أخذنا الفكرة الوافية معيارا للصدق يمكننا تقسيم المعرفة إلى أنواع:

أ_ المعرفة السمعية:

هذا النوع من المعرفة ينشأ ويكون عن طريق ما يتناقله الناس من أشياء فيما بينهم، أن أعرف مثلا قصة أصحاب الفيل عن طريق سماعها، وأعرف ما حدث لي في الماضي وفي طفولتي عن طريق السماع هذا النوع من المعرفة هو معرفة ظنية تفتقر إلى الدقة العلمية مثل المعرفة الحسية. يؤكد سبينوزا أن المدركات الحسية التي نأخذها من الواقع المحسوس هي ضمن المعرفة الظنية ومعرفة مثل هذه هي معرفة ليست وثوقيه أي لا نثق فيها.

ب_ المعرفة التجريبية المستمدة من التجربة:

هي المعرفة التي لم يتحقق العقل من صدقها ومعرفتنا العلمية تقريبا تشمل هذا النوع من المعرفة، عن طريق التجربة مثلا أعرف أن الماء يطفئ النار لكن تبقى معرفة ليست دقيقة هي معرفة تكشف فقط عن الصفات العرضية للأشياء والمعرفة الحقيقية تكشف الماهية الحقيقية للأشياء اذن تبقى معرفة ظنية.

ج_ المعرفة العقلانية الاستدلالية:

هي المعرفة التي يحصلها الإنسان عن طريق الاستنتاج يعني استنتاج ماهية شيء من شيء آخر مثال ذلك اعرف أن الأشياء تبدو من بعيد بصورة مخالفة لطبيعتها تبدو أكبر أو أصغر مما تبدو عليه في الحقيقة أستنتج أن الشمس أكبر مما تبدو لي.

د_ المعرفة الحدسية:

هي معرفة تنشأ من إدراك شيء ما من خلال ماهيته أو علته القريبة هي معرفة مباشرة مثلا أن اعرف بواسطة حدسي أن النفس متصلة بالجسم، أو ثلاثة زائد ثلاثة يساوي ستة وأن الشمس إذا طلعت فإن النهار حتما سيكون. الكل أكبر من الجزء هذا النوع من المعرفة هي التي تضمن لنا الخير الحقيقي وعلينا أن نسعى إليها بكل قوانا

الفكرة الصادقة التي اتخذها سبينوزا منطلق لفلسفته هي فكرة الكائن الأكثر كمالا هي فكرة قبلية تصدر عنا الأفكار الأخرى. يقول سبينوزا:" يقتضي التفلسف أن ننظر في الطبيعة الإلهية قبل أدوات الحس لأن الله سابق عنها من ناحية المعرفة ومن ناحية الوجود على حد سواء، وبعبارة أخرى إن أدوات الحس تعتمد في وجودها على الله ولذلك فإذا أردنا معرفتها وجب أن نعرف الله أولا".

اذن سبينوزا بدأ بفكرة الله إذا كان ديكارت انطلق من الذات المفكرة فإن سبينوزا ينطلق من فكرة الله وهكذا وصل إلى أن كل شيء يلزم عن طبيعة الله بالضرورة.

4_ الله عند سبينوزا:

الله هو كائن لامتناهي مطلق جوهر مكون من صفات لامتناهية، كل واحدة تعبر عن ذات أبدية لا متناهية وكلمة جوهر ما هو بذاته وما تم تكوينه بذاته، والصفة هي ما يدركه الفهم في جوهر معين على أنه هو الذي يكون ذاته بين هذه الصفات نجد الامتداد والفكر والتي ليست جواهر منفصلة كما كان عند ديكارت بل مجرد صور أساسية للجوهر الإلهي الله الكائن الماثل.

بالنسبة لسبينوزا الله والطبيعة هما السيء ذاته الله أو الطبيعة، الله باعتباره جوهر لامتناهي هو ذات ممتدة يقيسها الفهم وذات مفكرة عندما يفكرها، إن الله عند سبينوزا هو خال من التعالي. والتمييز بين الطبيعة الطابعة nature naturante والطبيعة المطبوعة nature naturée واضح على هذا الصعيد فالطبيعة الطابعة هي كل ما ينتج عن ضرورة طبيعة الله وهي الجوهر الذي يتحكم في عملية الخلق وهو مصدر الصفات والأحوال، الطابعة المطبوعة هي الطبيعة المخلوقة وكل ما هو مكون بذاته.

5_ اللاهوت والسياسة عند سبينوزا:

لم تستطيع الجالية اليهودية تحمل أفكار سبينوزا فقامت باضطهاده، وقد كتب سنة 1670 كتاب عنوانه "رسالة في اللاهوت والسياسة " حيث قيل إن صاحبه لم يمتلك الشجاعة القوية في وضع اسمه عليه، وحتى قيل اسم دار النشر الذي نشره كان زائفا بحكم أن سبينوزا عالج في هذه الرسالة الدين بطريقة علمية وعقلية محضة، واستطاع فيه أن يهاجم اللاهوت الذي تعدى حدوده، كما دعا إلى التسامح الديني وإلى تبني الديمقراطية في الوقت ذاته.

إذا كان ديكارت أراد أن يقيم العلم ويعمل على إرساء قواعد اليقين للمعرفة الإنسانية فوجدها في وجود الله وفي الصدق الإلهي، فإن سبينوزا أراد إقامة علم وإرساء قواعد اليقين للمعرفة الإلهية فوجدها في حتمية قوانين الطبيعة وفي التوحيد بينها وبين الله.

كتب سبينوزا كتاب عنوانه: "**رسالة في السياسة واللاهوت**" وضع عنوان ثاني للرسالة لبين أن الغرض من الرسالة هو إثبات أن حرية الفكر لا تعارض الإيمان الصحيح وحرية التفلسف لا تمثل خطرا على التقوى الصحيحة، الإيمان الذي

يقوم على البحث الحر خير من الإيمان الذي يقوم على العادات والتقاليد الموروثة، وحرية الفكر هي السبيل إلى تطهير ما يعلق بالإيمان مما يضاده من مصلحة طبقية أو صورة مظهرية أو حركة مسرحية، ويؤدي القضاء على حرية الفكر إلى ضياع التقوى وتحويل الإيمان إلى وثنية أو طاغوت، يطبق سبينوزا إذن منهج العقل ضد الخرافة والخزعبلات، أو يطبق منهج العلم على ما يعتري الناس من تخاوف وأوهام، غاية الرسالة إذن تحرير الشعور الديني بعد أن وقع فريسة للخرافة خاصة وأنه يميل بطبيعته إلى التصديق السريع بتذبذبه بين الخوف والرجاء، بين الرهبة والرغبة، واذا اعتراه الشك يصبح ريشة في مهب الريح ، واذا حصل على اليقين امتلأ بالغرور.

هكذا يبدأ سبينوزا رسالته كعالم من علماء النفس والاجتماع يحلل طبيعة الانسان ويصف تكوين الشعور الديني المبني على الخرافة، فيصبح أعجز الناس اكثرهم حكمة وأولهم طاعة للنصائح حتى ولو كانت خاطئة، يثير فيه أقل شيء من الخوف او الرجاء، ويرى في الحوادث الحسنة فألا طيبا ويتشاءم بالحوادث التي لا تقع وفق هواه، اذا ادهشه شيء ظنه معجزة من عند الله، ويتحاشى ضربات القدر بالشعائر والنذور، وبهذه الأساطير يفسر الطبيعة وكأنها تهذي معه، وكلما اشتد خوفه غرق في الخرافات، فإذا وقع في مأزق ابتهل إلى الله، وطلب العون الإلهي أو أعلن عجز العقل الإنساني عن الإدراك ! وتنشا الخرافة من الخوف، والخوف ضعف في الإرادة ونقص في الشجاعة، ويكون افتراض علة أولى تفوق الطبيعة نتيجة لهذا الضعف ولهذا النقص وهو ما لاحظه برغسون على التفكير العقلي أذ عد الفيلسوف إنسانا لديه ضعف في الإرادة velléité، ولهذا كانت الخرافة أفضل الوسائل لتسيير العامة، فتحتفل السلطات العليا بالمواليد وبأتقياء الله وعباده الصالحين لتسيير العامة ورائها وتنظر إلى الملوك باعتبارهم آلهة ثم يزينون الدين بالشعائر، أي يتم استخدام الدين للسيطرة على الجماهير، ويكثر الحاكم من بناء المعابد حتى يخضع الشعب لله وللحاكم في نفس الوقت وكما يقسوا الحاكم على الشعب يقسوا المؤمنون على غيرهم، فالمؤمنون هم أكثر الناس قدرة على القسوة وعلى الكراهية وأكثرهم تعصبا حتى ليعرف قوة الايمان، بمقدار غضبهم له وحقدهم على البشر، فالمؤمن قاس بطبعه لأنه يشعر بأن الله معه في فعله وأنه يفعل باسمه، ويميز المؤمنون أنفسهم فيما بينهم بالعقائد والشعائر والملابس والأسماء وحياتهم واحدة وفضائلهم واحدة، فيظن الجمهور أن الدين هو المناصب الكنسية للارتزاق منها والتعيش عليها، حتى أصبح الكهنوت إغراء للجميع واشتاقت إليه أشد القلوب قسوة، وأصبح الشره أو الطمع طريقا للدعوة إلى الله، تحولت الكنائس الى مسارح، ورجال الدين إلى خطباء محترفين لا يرومون تعليم الشعب، بل التكسب منه كما يفعل الحكام الطغاة، ومن هنا جاء التواطؤ بين رجال الدين وأصحاب السلطة، بين المعابد وأقسام الشرطة، وغايتهم أن يعجب بهم الناس، وطبيعي أن يدب الحسد والتنافس بينهم على ما اغتنموه، ولم يبق من الدين إذن إلا عبادة الاوثان Adulation لا عبادة الله Adoration .

أصبح الإيمان هو التصديق بالأحكام السابقة خاصة أحكام من يجعلون البشر في منزلة الحيوانات بمنعهم إياهم من حرية الحكم والتمييز بين الخطأ والصواب، واصبح الدين مجموعة من الخزعبلات والخرافات والاساطير وبواطن الصوفية، أصبح احتقارا للعقل الذي اعتبره رجال الدين فاسدا بالطبع مع أنهم لو اهتدوا إلى النور الفطري لما لجأوا إلى الكذب ولعبدوا الله حبا فيه لا كراهية في الناس ولما اضطهدوا مخالفيهم في الرأي ولحرصوا على سلامتهم ولما أعجبوا بأسرار الكتاب مع أن هذه الأسرار في الحقيقة لا تتعدى بعض نظريات أفلاطون وأرسطو التي وفقوها مع الدين حتى لا يتهمهم الناس باتباع الوثنيين فجعلوا الأنبياء يهذون ولم يشكوا مطلقا في المصدر الإلهي للكتاب المقدس وكلما شعروا بأسراره ازدادوا طاعة له.

والغرض الثاني من الرسالة يكشف عنه سبينوزا أيضا في العنوان الثاني للرسالة وهو أن حرية التفكير شرط في تحقيق الأمن الداخلي في الدولة، إذ أن حرية الفكر دعامة الرأي العام، والرأي العام هو الراصد لكل ما يحدث في الدولة خاصة في الأمور الداخلية، فإذا قضي على حرية الفكر قضي على الرأي العام وستصبح الدولة بلا أساس داخلي يتصرف الحاكم كيف يشاء، ولهذا جهاز الحكم يفعل ما يريد، وتنشأ هناك جماعات تناهض الحكم العام للدولة لذلك لا يجب أن تتدخل السلطات العامة في الحريات الفردية والا الدولة تعرض نفسها للخطر الحرية هي الحق الطبيعي للفرد كل فرد حر ضامن لحريته، الدولة هي ممثلة لسلطة الأفراد ولا تنزع حقوقهم وحريتهم التي كفلها لهم القانون بموجب عقد اجتماعي سلب الحقوق هو تحول إلى الدكتاتورية المواطن يعبد الله كيف ما شاء وله الحرية أن يتصوره كما يريد ولا يتم منعه من ذلك يعني حرية المعتقد .

هنا سبينوزا أراد فصل السلطة اللاهوتية عن السلطة السياسية الرسالة هي دراسة للصلة بين رجال الدين والسياسة وهذا دراسة للأوضاع التي عاش فيها سبينوزا.

النبوة مصدرها الله يهبها للنبي ويعبر عنها ويصلها للبشر جميعا النبي عند العبرانيين هو مبشرا وعرافا خطيب يعيد صياغة الوحي révélation دون الخروج عن حقيقته للناس. الله يمنح الوحي للنبي عن طريق الرؤية. وهي الوسيلة التي يخبرنا الله بها عن ماهيته المسيح هو وسيلة مباشرة للاتصال بالله المسيح يتصل بالله روح بالروح هنا سبينوزا يرفض كل التصورات التي قدمت حول المسيح في الكنسية المسيح ينظر إليه سبينوزا من الناحية المعرفية كوسيلة مباشرة للاتصال بالله وهذا الطريق يستطيع الفيلسوف وصوله عن طريق الحب هو الحب الصوفي ليس عن طريق الحس ولا العقل.

سبينوزا لا يؤمن بفكرة أن المسيح ابن الله الكتاب عندما يقول هذا يقصد الجانب المجازي لا الحقيقي. الأنبياء استقبلوا وحي الله بالخيال لا بالعقل ولهذا نبوة الكثير من الأنبياء بقيت غامضة لأنها مجرد خيال. في نظر سبينوزا معرفة الكتاب المقدس كما تقدم للناس ليست معرفة عقلانية بقدر ما هي معرفة خيالية الفرق بين الفيلسوف والنبي هو وسائل التبليغ الأول يعتمد الوحي الثاني يعتمد العقل. اليهود اختارهم الله واخياره لهم ليس أبديا بل هو مؤقتا لأنهم لم يتبعوا ما قاله الله ومثال ذلك التشريع الذي آتى به موسى إلى بني إسرائيل خالفوه خلافا تاما، اليهود لم يلتزموا بذلك التشريع.

الناس سواء في الطاعة ولكن يختلفون في الحكمة.

يعد سبينوزا واحد من أكبر الفلاسفة الذين عاش حياة الزاهد الرافض للمناصب والاغراءات، انطلق من ديكارت وأراد أن يعقلن كل شيء، فإذا به يصل إلى الله لا يكترث كثيرا لمصير البشر، وإلى حرية هي أقرب بالضرورة والحتمية وإلى سعادة ليس فيها عاطفة أو لذة. وهذه هي الاخلاق العقلانية التي يريدها سبينوزا في كتابه الاخلاق الذي صدر بعد وفاته.

المراجع المعتمدة:

_ باروخ سبينوزا رسالة في اللاهوت والسياسة.

_ باروخ سبينوزا، رسالة في السياسة فيه رسم سبينوزا الخطوط التي ينبغي أن يكون عليها المجتمع حتى لا يصبح ضحية الحكم الديكتاتوري،

_ باروخ سبينوزا، رسالة قصيرة في الله والإنسان وسعادته.